معالم النقد الأدبي في صدر الإسلام:

سوف لن نتطرق إلى قلة الشعر في ھذا العصر ولكننا سنتتبع معالم النقد
على ضوء الشعر الموجود سواء تلك الأحكام النقدیة التي صدرت على
الشعر الجاھلي أو على الشعر الإسلامي المعاصر.
وإذا حاولنا الوقوف على معالم النقد في عھد النبي صلى الله علیھ وسلم، لابد لنا أن نأتي بأمثلة من الأحكام في ذلك الوقت، والمشھور عن النبي صلى اللهعلیه وسلم أنه كان یستمع إلى الشعر ویعجب به متى كان حقا لیس فیه عبث ولا كفر، وكان یستنشده ویتمثل به ویثب علیه فیقال أنه أعطى بردته لكعب
 تبن زھیر لما انشده قصیدته:
 بانت سعاد فقلبي الیوم متبول
 متیم أثرھا لم یفد مكبول
ویروي أنه كان صلى الله علیھ وسلم یتمثل بشعر طرفة فیقول :
 ستبدي لك الأیام ما كنت جاھلا
 ویأتیك بالأخبار من لم تزود
ویقول : ھذا من كلام النبوة .
وكان صلى الله علیه وسلم یستنشد الخنساء بعد أن أسلمت قائلا : «ھیه یا
خناس»، ویوميء بیده، كما أنه كان یقول : أن من الشعر لحكمة أو أن من
البیان لسحرا، وتمثله صلى الله علیه وسلم بالشعر دلالة على أنه كان یعجب بما یثمتل به .
فإذا وصلنا إلى الخلفاء الراشدین نجد أن عمر ابن الخطاب كان ذا بصر
بالشعر وعلم بھ، وقد اشتھر بذلك من بین الخلفاء الراشدین ، فكان یصدر
أحكاما على الشعراء الذین كان یتذوق شعرھم ویعجب به وكثیرا ما یردده، فھو یسمى زھیرا قاضي الشعراء لھذا البیت الذي كان یعجب به :
فإن الحق مقطعه ثلاث یمین أو نفار أو جلاء وفي كتب الأدب نجد روایة عن عبد الله بن عباس قال : خرجنا یوما مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنھ في سفر، فرفع عقیرتھ ینشد :
 فما حملت من ناقة فوق رحلھا
 ابر وأوفى ذمة من محمد
ثم وضع السوط على رجلھ وقال : استغفر الله العظیم ، ثم عاد فأنشد حتى
فرغ، ثم قال : یا لبن عباس، ألا تنشدني لشاعر الشعراء؟ فقلت یا أمیر
المؤمنین، ومن شاعر الشعراء؟ قال زھیر، قلت : لما صیرتھ شاعر
الشعراء؟ قال : لأنھ لا یعاظل بین الكلام ولا یتتبع وحشي الكلام، ولا یمدح أحدا إلا بما فیھ. وفي روایة أخرى أنھ لما سألھ عن أشعر الشعراء: من ھو؟
قال : الذي یقول :
ولو أن حمدا یلد الناس أخلدوا
ولكن حمد الناس لیس بمخلد
فقال ابن عباس : ذلك زھیر .. إلى آخر الروایة.
یقول الدكتور محمد مصطفى ھدارة : « واعجابھ بزھیر الجاھلي إنما ھو
إعجاب معلل، تنبني النظرة النقدیة فیھ على أساس فني و خلقي معا»
ونلاحظ بالطبع أن ھذه النظریات والأحكام مخالفة لما ألفناه بعض الشيء،
ففي ھذا بعض التعلیل والتفصیل نوعا ما.
وھنا لا بأس أن نذكر روایة أخرى عن عمر ابن الخطاب تقول أنھ سأل
أصحابھ : من أشعر الشعراء؟ قالوا: أنت أعلم یا أمیر المؤمنین، قال : من
الذي یقول :
إلا سلیمان إذ قال الإله له
قم في البریة فاحددھا عن الفند
قالوا : النابغة، قال : فمن الذي یقول :
أتیتك عاریا خلقا ثیابي
على خوف تظن بي الظنون
قالوا : النابغة. قال : فمن الذي یقول :
حلفت فلم أترك لنفسك ریبة
ولیس وراء الله للمرء مدھب
قالوا : النابغة ، قال : فھذا ھو الشعر العرب.
ونلاحظ في ھذه الروایة تفصیلا أكثر، إلا أننا نجد تضاربا بین ھذا الحكم
الذي یجعل النابغة في القمة، والأول الذي یجعل زھیرا في القمة، ولكن إذا
صحة ھاتان الروایتان، فإن ذلك قد لا یدل على تضارب في أفكار عمر بن
الخطاب وحكامھ، وقد رضي الله عنھ من أبصر الناس بالشعر وأقدره على
تقویمھ وتمییزه، وإنما یدل ھذا على أن النقد – وإن كان قد أصابھ نوع من
التطور على ید عمر حین یعلل – فإنھ لا یزال من ناحیة أخرى امتدادا للنقد الجاھلي، فالناقد كثیرا ما یعجب بقول شاعر، ولكنھ حین یسمع قول شاعرآخر یؤثر فیھ فیستحسنھ وسرعان ما ینسى حكمھ السابق فیحكم على ھذا بأنه أشعر الشعراء، وكما ذلك إلا لأن تلك الأحكام إنما ھي ولیدة ساعتھا ولیست نتیجة التأمل والرویة، غیر أن ھناك روایة أخرى لھذا الخبر الذي یروي عن عمر، یجعل من النابغة في رأیھ أشعر غطفان فقط لا أشعرالعرب جمیعا وبذلك ینتفي التناقض.
وإذا كان النقد في الجاھلیة یھتم في الغالب بالصیاغة، فإن عمر یعجبھ المعنى فیصدر أحكامھ تبعا لتأثیر تلك المعاني فیھ، ورغم ذلك فأحكامھ بلا شك لھا قیمتھا. یقول الدكتور محمد مصطفى ھدارة: «كان لتوجیھ العربي ... ومحاولة رد الشعراء إلى جادة الحق ...» وإذا كان أغلب النقاد أو أكثرھم قد اجمعوا على أن النقد في بدایة صدرالإسلام كان جامدا، وصورة وامتدادا للنقد الجاھلي ، فما ذلك إلا لأن الأحكام النقدیة التي نجدھا في ھذه الفترة قلیلة، باستثناء أحكام عمر بن الخطاب، وبذلك نتجاوز ھذه الفترة إلى الفترة التي تلتھا، في العصر الأموي إلى آخرالقرن الأول الھجري تقریبا، فنحاول الوقوف على معالم النقد في ھذه الفترة ومدى ما أصابھ من تطور.
یقول الدكتور شوقي ضیف : «على كل حال لا ینمو ولا یقوى في عصر
صدر الإسلام، وإنما ینمو ویقوى في العصر الأموي حین استقر العرب في المدن والأمصار وتأثروا بالحضارات الأجنبیة من جانبیھا المادي والعقلي»وفعلا نجد الشعر في ھذا العصر یزدھر تبعا للتطور الطبیعي في البیئات المختلفة كالحجاز والشام والعراق، كما نجد النقاد قد بدأوا یوازنون بین الشعراء، تارة بین شعراء المذھب الواحد، وأخرى بین شعراء البیئة
الواحدة، وظھرت كلمات نقدیة جدیدة یرجع كل شاعر إلى مذھبھ، فنجدھم
یقولون: جریر أشعر عند العامة، والفرزدق أشعر عند الخاصة مثلا.
وقد كان خلفاء بني أمیة یعقدون المجالس الأدبیة یتحدث فیھا الحاضرون
عن الشعر والشعراء، ویلقیا لمادحون قصائدھم فتنال الاستحسان أو
الإعراض والانتقاد، فمعاویة بن أبي سفیان ألقى عن المادحین فضول الكلام، وأشعر أھل الإسلام كعب بن زھیر ومعز بن أوس .
واشتھر الخلیفة عبد الملك بن مروان بأحكامھ النقدیة، فیروي عنھ أنھ قال
لمادحیھ : «تشبھونني مرة بالأسد ومرة بالبازي ومرة بالصقر، أما قلتم كما قال كعب الأشقري :
 ملوك ینزلون بكل ثغر
 إذا ما الھام یوم الروع طارا
 رزان في الأمور ترى علیھم
 من الشیخ الشمائل والنجارا
 نجوم یھتدي بھم إذا ما
 أخو الظلماء في الغمرات جارا"
ومدحھ الشاعر عبد الله بن قیس الرقیات بقصیدة منھا :
 أن الأغر الذي أبوه أبو الـ
 ـعاصي علیھ الوقار والحجب
 یعتدل التاج فوق مفرقة
 على جبین كأنھ الذھب
فقال لھ : تمدحني لتاج كأني من العجم وتقول في مصعب بن الزبیر :
إنما مصعب شھاب من اللـ
 ـھ تجلت عن وجھھ الظلماء
ملكه ملك عزة لیس فیه
 جبروت منھ ولا كبریاء
وفي ھذه الأحكام نقد دقیق موجھ یدل على ذوق عبد الملك العربي الخالص.وھكذا تتوالى الأحكام النقدیة، ومنھا حكم الشعراء بعضھم على بعض، كحكم جریر على الأخطل بأنھ یجید مدح الملوك، وحكم الأخطل على جریر بأنه یغرف من بحر، وعلى الفرزدق بأنه ینحت من صخر.
وإذا أتینا إلى أواخر القرن الأول الھجري نجد أن النقد قد بدأ ینمو أكثر نتیجة لعدة عوامل منھا : تلك المجالس الأدبیة التي كان یعقدھا الخلفاء، والاحتكاك بین الشعراء والتنافس الأدبي بینھم.